عرّفه باسمه، وهو يمدّ ذراعه إلى الخارج، وحكى عن حبّه القديم لأن يطلّ من شبّاك الميكروباس وهو ينطلق، وعن كراهيّته كلّ الإشارات، وعن عدم توفّر هذه الفرصة له دائماً، فقد يكون هناك راكب يضمر هذا الحبّ. «باين عليك والله زينا».

هزّ رأسه موافقاً، وضحكا

*

باقة وردٍ، كيف يوجدها لها؟

فكّر في أن يجمع أشياءها الدّقيقة، الّتي أخفتها بفرح في الأماكن الّتي جلس فيها، أن يهديها **الحبّ في زمن الكوليرا**، أن يلتقط صوراً لشارع فيصل الّذي طالما سارا فيه، أن يسهب في وصف نظرتها الجانبيّة المتسائلة.

أية باقة يوجدها؟ يشتهيها؟

خلص إلى أن يذهب بمفرده إلى الحرافيش، مكانهما الأوّل، ويستغرق في وجودها الحقيقي إلى جانبه.

*

نظر إليه الفرّاش في دهشة. لم يكن أحد قد حضر، لا الطلاّب ولا المدرّسون. لم تكن عادته أن يأتي مبكراً ويصعد إلى الغرفة الّتي تضمّ المكاتب، ويصلح سلك السّخّان الكهربائي ويضع فوقه البرّاد، وينظر من سور الدّور الثّاني على الحوش المنتصب في وسطه سارية العلم، ثمّ يلتفت إلى فصل، ويتّجه نحوه، ويسير بين المقاعد الخشبيّة ويمرّر أصابعه على أسمائهم المحفورة ورسومهم، ويتذكّر ما تمنّى دائماً أن يشرحه لهم، أن يحكيه، ويقترب من السّبورة ويمسح تاريخ الأمس.

ويخرج عائداً إلى البيت، مضمراً أن يغيب اليوم.

*

وماذا لو قرأتَ خطابك غير المكتمل؟

يهمّ كثيراً أن يُنهيه، فلا يخط خطاً، ويمنّي نفسه بلقاء في نهايته ويعطيها الخطاب غير المكتمل ـ قائلاً:

ـ حضوركِ سيكمل ما نقص

وماذا أيضاً؟

ـ ما نقص لا يريد سوى كمالكِ

وماذا؟. . .

ـ كمالكِ في طيّ الكتمان

وماذا. . .

ـ كتماني يعرف أكثر مما قلتُ

و. . . . . .؟

وماذا قلتَ في لقاءٍ عند خطاب غير مكتمل؟

*

يفتح النّافذة محاولاً الإفلات مما داهمه في عتمة الغرفة.

لم يطمئن إلى تلك الشّرفة المواجهة له بشيشها المغلق والّتي لا تنسحب عنها أبداً كثافة الأتربة. تذكّر فيروز «تعاتا نتخبّى من درب الأعمار».

وهو يتذكّر ما نَسِيَه

القاهرة

وعاء الضّغط

فيصل عبد الحسن

لم تكن مهمّة صعبة، إنّها مجرّد قدر ضخمة للضّغط، مغلقة ولا يخترقها الصّوت. كانوا يقضون نهار الجمعة في التّجوال في الأسابيع الماضية، والحديث عن أمور حياتهما المشتركة تستغرقهما، وابنهما الصّغير مثل قرد ينطّ أمامهما في دروب الحديقة ببنطاله السّميك الأزرق والحذاء الصّغير في قدميه يصدر صفيراً خاصّاً كلّما أسرعت خطواته. كانت امرأة ضئيلة وقد بان الاصفرار على وجهها وبدت يدا الرّجل ملوّثتين ببقايا أصباغ وجروح قديمة مندملة، وحزوز كثيرة في جلد راحتي كفّيه. وأخذت المرأة توافقه على كلّ ما يقوله دون نقاش. لكنّه كان يتضايق من هذا القبول غير المشروط ويتمنّى لو أنّها ناقشته في ما يعتقده، للوصول إلى حلول ممكنة.

أخذت المرأة تسرح ببصرها بعيداً. كان شعرها جميلاً، مرسلاً على ظهرها، ليغطي الورود الحمراء، المطبوعة على قميصها. وبين الحين والحين تنظر إليه بعينيها الواسعتين، فيشعر الرّجل بمسحة الحزن التي تغطّي قسمات وجهها. وتذكّر أوّل لقاء لهما قبل أن يتزوّجا، فقد بهرته بعينيها الوامضتين، ولم يرَ شيئاً غير العينين في تلك الأيّام. فكّر الرّجل أنّ عليهما أن يجتازا الحديقة ليصلا إلى بغيتهما. وثمّة ورقة مدعوكة ينظر إلى العنوان المسجّل عليها بقلم رصاص بين الحين والحين. قال الزّوج وهو يومئ للصّغير للإبطاء في السّير: ـ «إنّهم بحاجة إلى امرأة ورجل وطفل».

لم تقل المرأة شيئاً. كانت تتبع رجُلها صامتة. وقف الصّغير على أرض الممرّ ينتظرهما، وحالما وصلا إليه مد يده باتجاه أبيه. أمسك الأب الكفّ الصّغيرة وسارا معاً يسبقان المرأة. أعادت المرأة خصلة شعر سرحت على عينها اليسرى. عبرا الشّارع، كانت الأم في هذه المرّة هي الّتي تمسك كفّ الصّغير. همس الزّوج: «إنّه مصدر رزق جديد، لنتمكّن من تسديد الأقساط المتأخِّرة من بدل إيجار البيت، ونشتري ما نحتاجه من الملابس للصّغير».

أمام مبنى كبير، أخذ الرّجل يعيد قراءة العنوان المكتوب على الورقة المدعوكة التي يمسكها في يده. ضحك الرّجل: ـ

ـ «قلت لنفسي سأجد المكان، وها نحن وقد وجدناه».

دخلا المبنى، كان ثمّة بوّاب يجلس على مصطبة، حدّثه الرّجل، فاقتاد العائلة الصّغيرة في ممرّ طويل ينتهي إلى غرفة تقع إلى اليسار. وثمّة رجل يجلس خلف منضدة. أعطى الرّجل ورقة المعلومات ووقفت زوجته قريباً من باب الغرفة وهي ترتجف خوفاً. همس زوجها وهو يملأ الفقرات الفارغة على الورقة:

ـ «إنّها إجراءات شكليّة، لا تشعري بالخوف منذ البداية».

حين أكمل الزّوج ملء ورقة المعلومات طلب منه الرّجل أن يوقّعها بإمضائه، ففعل. أخذ الرّجل الورقة بعناية، وكأنّه يستولي على كنز وطلب منهما أن يجلسا على مصطبة في الجوار ليقودهما بعد ذلك إلى وعاء الضّغط. بدت الأضواء لعيني الزّوجة باهتة، والممرّ الطّويل يشبه ممرّاً في أحد المستشفيات. أجلسا صغيرهما بينهما. كان الصّغير كثير الحركات، فلم يستقرّ في مكانه بينهما سوى لحظات، وحالما شعر بأبيه وأمّه ينشغلان بالحديث ترك مكانه وأخذ يلعب في الممرّ، ويحجل بقدم واحدة ويصدر أصواتاً عالية.. حتّى قال الزّوج:

ـ «لن يطول انتظارنا».

كانت المرأة أكثر قلقاً من زوجها، وقد أخفت الأضواء الباهتة لون وجهها المصفرّ وجعل القلق عينيها أكثر حيويّة، فأخذتا تشعّان بلمعة غريبة لم يعتدها من قبل. قالت مترّددة:

ـ «سندعهم يفعلون بنا ما يشاؤون، ولكنّ الصّغير لن أتركه يخضع لتجاربهم».

عاد الرّجل واصطحبهم في ممرّ جانبيّ. ومن خلال نوافذ زجاجيّة واسعة تطلّ على حديقة كبيرة وسط المبنى، كان الوعاء الضّخم الألمنيومي يتوسّط الحديقة، وثمّة رجل يجلس على كرسي، ورجل آخر يضع على المنضدة جهاز التّنصّت لضربات القلب ويقف بصدريّته البيضاء المتّسخة عند أطرافها. وبدا للرّجل ولزوجته أنّ الرّجل الذي يجلس على الكرسيّ هو الذي يصرف على هذه الماكنة، واختباراتها. كان يضع رِجلاً على رجل وقد بان شعر ساقه مثل نمل كثير وأخذ ينظر إلى الزّوجة نظرات متفحّصة. وسأل المضمّد الرّجل الآخر الّذي بدا بوجهه الفتيّ وشاربه الدّقيق وهو يراقب المرأة ساهماً، وبدا أنّه صاحب الأمر:

ـ «أأسجّل عدد النّبضات؟».

هزّ الرّجل رأسه موافقاً. أخذ المضمّد يسجّل على ورقة أخرجها من جيبه عدد النّبضات. وعندما أكمل ذلك ترك الرّجل الآخر كرسيه وفتح بوّابة جانبيه في قدر الضّغط ودلف إلى الدّاخل وأعاد غلق البوّابة. فانتهز الزّوج الفرصة ليسأل المضمّد عن مدى خطورة التّجربة، فأجاب:

ـ «إنّها ليست خطيرة، لكنّها تستغرق وقتاً».

أكمل المضمّد بعد ذلك وكأنّه يقصد إسماع المرأة ما يريد قوله:

ـ «إنّ الوعاء معزول عزلاً جيّداً ومهما صرخ الإنسان داخله بصوتٍ عالٍ فلن يسمعه أحد في الخارج».

كان الوعاء كبيراً بحجم شاحنة، وقد أُلصِقَتْ على جدرانه الخارجيّة الخرائط الكهربائيّة وصور الأجرام السّماويّة، وثمّة عدّة أبواب جانبيّة توصل إليها سلالم حديدية مثبتة على أرض الحديقة، وفوق كلّ باب عُلِّقت صورة فاتنة بالحجم الطّبيعي لامرأة وهي تبرز مفاتنها بحركة ونظرة خاصّة جامدة، وثمّة بارومترات معلّقة إلى جوانب الوعاء الخارجيّة والسّائل الكثيف داخلها يترجرج صعوداً ونزولاً. قال المضمّد وهو يقودهما صوب بوّابة الوعاء الرّئيسيّة:

ـ «ستجرى التّجربة عليكم أنتم الثّلاثة أوّل الأمر، وبعد ذلك كلّ واحد منكم على انفراد».

دمدمت المرأة لزوجها بصوت مكتوم:

ـ «لن أترك ابني وحده، عند إجراء التّجربة عليه».

سمع المضمّد ما تهمس به المرأة، فقال بطيبة:

ـ «يمكنك أن تبقي معه!».

فتح البوّابة ودلفوا إلى الدّاخل. كان الوعاء من الدّاخل مؤثثاً، وثمّة ضوء قليل ينبعث من فانوس معلّق إلى الجدار. وحين اعتادت عيونهم الظّلام، كان الصّغير يحاول الإفلات من يد أبيه ليكتشف بنفسه مجاهل المكان الجديد، إلاّ أنّ الأب لم يترك كفّه الصّغيرة. بدا الوعاء للزّوج مقسّماً من الدّاخل بعدة حواجز، وعلى ضوء الفانوس استطاع أن يرى سريراً لشخصين وصورة معلّقة إلى الجدار، وسمع المضمّد يقول:

ـ «سيضيء مصباح قويّ ثلاث مرّات وسينتهي الاختبار الأوّل».

أبقاهم في الوعاء المعزول وخرج مغلقاً الباب خلفه. مدّ الزوج يده وقبض على كفّ زوجته. كانت أصابعها ترتجف والصّغير يناضل للخلاص من قبضة أبيه. ولم يطل انتظارهم طويلاً، فقد أضاء مصباح قويّ ثلاث مرّات وانطفأ وسمعوا باب الوعاء يفتح من الخارج، ووقَعَ قدمي المضمّد على الممرّ. طلب المضمّد بصوت متهدّج من الزّوج أن يصطحب ابنه إلى الخارج، لتبقى المرأة وحدها، فهمس لها زوجها:

ـ «لا يقلقك البقاء وحدك؟!».

نظرت إليه بعينيها الجميلتين. كانت ترتجف من الرّعب، لكنّها ابتسمت وقالت بصوت خافت:

ـ «سأحاول أن لا أخاف...».

أغلق المضمّد الباب من جديد. كان الباب محكماً لا ينفذ الصّوت من خلاله. اصطحب المضمّد الزّوج وابنه إلى الحديقة وأخذ يجري عليهما الفحوص المختلفة ويسجّل المعلومات على ورقة فوق المنضدة. قاس طوليهما وعرض كتفيهما وارتفاع عقب كلّ قدم على حدة وعدد نبضاتهما، وأنفاسهما، وقاس درجات حرارتيهما.. كلّ هذا والطّفل يقاوم الفحوص المملّة التي يجريها المضمّد، وهو عند

كلّ فحص يخشى أن يزرقه المضمّد بإبرة، ووجهه ينبئ عن عدم اطمئنان طفوليّ، لكلّ حركة يؤدّيها الرّجل. وحين أكمل المضمّد كلّ الفحوص، سأله الزّوج وهو ينظر صوب وعاء الضّغط الموصد:

ـ «أتستمرّ التّجربة على زوجتي طويلاً؟».

كتب الرجل شيئاً على ورقة أمامه بلامبالاة:

ـ «بعد قليل سيضاء المصباح المعلّق عند البوّابة الرّئيسيّة وسأفتح الباب لتخرج زوجتك..».

صمت الزّوج لحظات، استطاع الصّغير خلالها التملُّص من يد أبيه وأخذ يركض في الحديقة ويقطع الزّهور الصّغيرة المتفتّحة، القريبة من متناول يده. سأل الزّوج من جديد:

ـ «ما النّفع من إجراء كلّ هذه التّجارب وصرف هذه المبالغ الضّخمة؟». ضحك المضمّد وقال ساخراً:

ـ «إنّنا نجرّب إمكانيّة عيش الإنسان في أمكنة ضيّقة، في وعاء للضّغط، أليس هذا سبباً كافياً؟».

اعتقد الزّوج أنّ الرّجل لا يحتمل النّقاش الجدّيّ، فأخذ يتابع بعينيه المصباح. وحين أضاء بعد دقائق شعر بفرح طاغ يتملّكه، وأشار للمضمّد أنّ المصباح قد أضاء، فقام الرّجل ضجراً وفتح الباب. فخرجت الزّوجة مذعورة وهي تحاول اعتياد الرّؤية في ضوء الشّمس، وأخذت تنظم شعرها وتعيد طرف قميصها الخارج من التّنورة، وهي تشعر أنّها مبلّلة، مثل ثمرة بطّيخ مفلوقة إلى نصفين. ركض الصّغير صوبها واستقبلها الزّوج ورأى على وجهها ورقبتها قطرات عرق، قال لها:

ـ «أرجو أن تكوني بخير».

هزّت رأسها إيجاباً. كانت يدها تقبض على أوراق نقديّة. قال المضمّد:

ـ «اكتملت الاختبارات اليوم. ستحضران حالما نهاتفكم، وربّما نطلب حضور الزّوجة وحدها أو الرّجل وحده. إنّ ذلك يتوقّف على نوعية الاختبار».

قال الرّجل هامساً لزوجته:

«أقبضتِ؟!».

فتحت كفّها فبانت الأوراق النّقدية المدعوكة مبلّلة بعرق كفّها، ولم تقل شيئاً. خرجا من البناية وأخذا يسيران في الشوارع المزدحمة بالنّاس، وبعد ذلك قطعا شارعاً عريضاً صوب الحديقة التي مرّوا بها قبل ساعتين. قال الزّوج:

ـ «أكان أحد غيرك داخل وعاء الضّغط؟».

هزّت المرأة رأسها إيجاباً ولمعة غريبة بَرَقَتْ في عينيها:

«هو الّذي أعطاك مكافأة التّجربة؟».

هزّت رأسها من جديد إيجاباً. قال الزّوج مخففاً:

ـ «إنّها اختبارات بسيطة! إنّهم يرمون أموالهم في الطّريق! سنكسب مالاً كثيراً في الأيام القادمة».

أخذت المرأة تنظر واجمة صوب أطفال الحديقة بملابسهم الملوّنة، وثمّة فتيات يلعبن بكرة مطّاط حمراء، وشمس هائلة الحجم مهشّمة تستحمّ في ماء النّهر القريب وتخرج أجزاؤها لاهثة، لتلقي بنفسها على أوراق الشّجر القريبة وتثقبها وتتقلّب باسترخاء بين أوراق العشب ثمّ تنساب بملل بين أقدام الأطفال اللاّعبين هنا وهناك..

العراق

الحياة

على حافة الدّنيا

رشيدة الشارني

أخرجنا الأغنام من الزّريبة وقُدناها باتّجاه المراعي القريبة من حقلنا يشيّعنا صوت أمّي منبّهاً:

ـ لا تبتعدوا كثيراً، النّوّة قادمة.

سار القطيع بخطى حثيثة، وكانت الخرفان تتدافعُ برفق وقد بدت منتعشة بدفء الشّمس الّتي غاب نورها أيّاماً طويلة. توزّعت في المرعى تحرسها كلابنا الشّرسة، وأخذ أخواي عمّار والأمين يتقاذفان كرة مصنوعة من جوارب قديمة، بينما استلقيتُ أنا على العشب الطريّ أتنفّس عطر الرّبيع وأهيم ببصري في بهائه.

كان يحدّ الرّبى المحيطة بنا جبال عالية، كنّا نقول عنها دائماً ونحن نتطلّع نحوها إنّها حافة الدّنيا ونتصوّر أنّ وراءها بالضّبط يقع العالم الآخر حيث يحاسب الله الأموات من عباده محفوفاً بملائكته، وحيث الجنّة والنّار. وكنّا نرى في أوامر والدينا بعدم الابتعاد كثيراً تأكيداً لذلك.

خطر ببالي أمر وأنا أطالعها وأتفحّص ارتفاعها: لماذا لا نذهب إلى حافة الدّنيا ونتجسّس على سكّان العالم الآخر؟

أحسست أنّني صرت قادرة بسنواتي الّتي فاقت العشر على تجاوز الخوف الطفوليّ المزروع في أعماقي أكثر من أيّ وقت مضى. ناديت أخويّ وعرضتُ عليهما الفكرة فأظهرا خوفاً كبيراً في البداية ثمّ وافق الأمين وهو أكبرنا سنّاً على مشاركتي المغامرة. تركنا عمّاراً يحرس القطيع ومشينا باتّجاه أقرب نقطة من الجبال بدت لنا.

قطعنا مسافةً طويلة وفي كلّ لحظة تزداد الجبال أمام عيوننا ارتفاعاً وندرك مدى بُعْد العالم الآخر عنّا.